الفصل الثانى

خصائص النفس البشرية

فطرة الانسان :

« الانسان » كائن فذ فى هذا الكون .. فذ فى طبيعته ، وفذ فى وظيفته وغاية وجوده ، وفذ كذلك فى مآله ومصيره .. انه مخلوق غير مكرر فى جميع الخلائق التى عرفناها ، والتى يحدثنا الله عنها كذلك ولا نراها ، ومخلوق بقدر ، فلم يوجد هكذا مصادفة ولا جزافا . ومخلوق لغاية ، فلم يخلق عبثا ولا سدى . وهذا واضح فى نظرة الاسلام الى الانسان بجملتها .. فالانسان — فى التصور الاسلامى — هو سيد هذه الأرض ، بخلافته فيها عن الله ، وكل ما فيها مسخر له ، بقدرة الله تعالى . وقد أوتى امكان العلم بشئونها ، هبة من الله سبحانه ، والاستمتاع بطيباتها وجمالها ، نعمة منه خالصة . وليست الأرض وحدها وكل ما فيها من أحياء وأشياء ، ولكن كذلك السموات مهيأة لمساعدة الانسان فى خلافته فى الأرض(١) .

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم . واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم

---

(١) سيد قطب ، **الاسلام ومشكلات الحضارة** . (القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٢) ، ص ٢٢ ـ ٢٥ .

بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون · واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (البقرة : ٢٩ — ٣٤) ·

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون · وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الجاثية : ١٢ ، ١٣) ·

« والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون · ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون · وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، ان ربكم لرؤوف رحيم · والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون · وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين · هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون · ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون · وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون · وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون · وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون · وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون · وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون » (النحل : ٥ — ١٦) ·

لكن هذا الانسان — فى التصور الاسلامى كما هو فى الحقيقة — على كل ما استودعه الله من أمانة الخلافة الكبرى فى هذا الملك العريض ، وعلى كل ما سخر له من القوى والطاقات والأشياء والأحياء فيه ، وعلى كل ما أودعه هو من طاقات المعرفة والاستعداد لادراك الجوانب اللازمة له فى الخلافة من النواميس الكونية .. على كل هذا هو مخلوق ضعيف ، تغلبه شهواته أحيانا ويحكمه هواه أحيانا ، ويقعد به ضعفه أحيانا ، ويلازمه جهله بنفسه فى كل حين ·

وأول ما ظهر من ضعفه وعجزه وخضوعه للاغراء والشهوات ، ما يصوره القرآن الكريم من استسلامه لاغواء الشيطان بشهوة الخلد

وشهوة الملك ، ونسيانه أنه عدوه الذى يتربص به ، ونسيانه كذلك تحذير الله له .. وهو تصوير للحقيقة الخالدة فى الانسان ..

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى . فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

(طه : ١١٥ — ١٢٧)

وتتواتر الاشارات الى جهل الانسان بأمر نفسه ومستقبله ومصيره ومآلات أفعاله ، مع تأثره بالشهوات والهوى والضعف ، بحيث لا يصلح — بجهالته هذه وضعفه وهواه — لأن يتولى وضع منهج لحياته هو ، وان كان مزودا بالقدرة على استخدام المادة ، ومعرفة قوانينها اللازمة له فى الخلافة ، فى اطار المنهج الذى رسمه الله لحياته ..

« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسراء : ٨٥) .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » .

(الروم : ٦ ، ٧)

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير » (لقمان : ٣٤) .

« فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .

(النساء : ١٩)

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لـكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لـكم ، والله يعـلم وأنتم لا تعلمون » (البقرة : ٢١٦) .

« لا تدرى لعـل الله يحدث بعد ذلك أمرا » (الطلاق : ١) .

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهـدى » (النجم : ٢٣) .

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » . (المؤمنون : ٧١)

« ان الانسـان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا » (المعارج : ١٩ — ٢١) .

وتستهوى الانسان الحياة الدنيا بزخارفها ومباهجها وزينتها ، وتجرفه فى تيارهـا .. فينهل من هذه المباهج ، وينصرف عن عبادة الخالق وطاعته ، ويمشى فى الأرض مرحا ، ويستبد ويطغى ، ولا يعمل حسابا لآخرته ..

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » (الحديد : ٢٠) .

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسـدين » (القصص : ٧٧) .

« فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فان الجحيم هى المأوى » . (النازعات : ٣٧ — ٣٩)

« كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى » (العلق : ٦ ، ٧)

« من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » . (الأعراف : ١٨٦)

ومن الحديث النبوى الشريف(١) :

« لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » . (الترمذى) .

---

(١) عز الدين بليق ، **منهاج الصالحين** . ص ١١٥ — ١١٧ .

« انما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » .
(ابن ماجه)

« الدنيـــا حلوة خضرة ، وان الله مستخلفكم فيـــها ، فينظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيـــا واتقوا النساء ، فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت من النساء » .(أحمـــد) .

« الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له » .
(أحمد والبيهقى)

« من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » . (أحمد) .

« لا تسبوا الدنيا فلنعم المطية للمؤمن ، عليها يبلغ الخير ، وعليها ينجو من الشر » . (الديلمى) .

« أصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم » . (الشهاب) .

* * *

خصائص النفس البشرية :

لقد تحدث « الغزالى » عن « النفس البشرية » فاستخدم للدلالة عليها ألفاظا أربعة هى : النفس ، والقلب ، والروح ، والعقل . وهذا ما يدعونا الى أن نعرض بشكل موجز لهذه الألفاظ لنعرف ما اذا كان قد استعملها بمعنى واحد أو بمعان مختلفة(١) .

لقد وردت هذه الألفاظ ــ عدا لفظ « العقل » ــ فى القرآن الكريم . وسنرتب الحديث عن كل منها على أساس مدى شموله لمفهوم الانسان بصورة عامة ، أو تخصصه وانفراده بجوانب معينة منه . وعلى هذا الأساس يكون الحديث عن « النفس » فى البداية ، لأنها أكثر شمولا وأوسع استعمالا من مختلف الألفاظ الأخرى ، كما أنها غالبا ما تدل على كيان الانسان ككائن حى ..

---

(١) عبد الكريم العثمان ، **الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالى بوجه خاص** . (القاهرة : مكتبة وهبة ــ الطبعـة الثانيـة ــ ١٩٨١) ، ص ٥٣ ــ ٥٨ .

ثم يأتى لفظ « القلب » الذى استخدم للدلالة على العنصر الواعى والعاطفى فى الانسان .. أما « الروح » فغالبا ما تمثل حقيقة مجردة ذات أصل الهى تتصل بالانسان على نحو خاص .. أما فعل « العقل » فيطلق فى القرآن الكريم للدلالة على الفهم والتفكير .

١ ــ النفس :

لقد وردت على صور متعددة فردية وجمعية . وهى تدل أكثر ما تدل على الانســـان ككائن حى ، ذى أصل واحد ، يتكاثر ويكسب ويشعر وينفعل ، كما وردت أحيانا للدلالة على طوية الانســـان وجوهره ، أو للدلالة على شىء معين ..

ومن الأمثلة على استخدامها للدلالة على الانسان :

« واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » (البقرة : ٤٨)

« لا تكلف نفس الا وســعها » (البقرة : ٢٣٣) .

« قوا أنفســكم وأهليكم نارا » (التحريم : ٦) .

« وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » (الزخرف : ٧١)

« أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميــعا » (المــائدة : ٣٢) .

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » (البقرة : ٢٢٨)

« ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » (يوسف : ٣٢) .

وقد وردت كلمة « النفس » فى القرآن الكريم للدلالة على الذات الالهية ، مثل :

« ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد » (آل عمران : ٣٠)

« واصطنعتك لنفسى » (طه : ٤١) .

« تعــلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » (المائدة : ١١٦)

« كتب ربكم على نفسه الرحمة » (الأنعام : ٥٤) .

ومن الأمثلة على استعمالها للاشارة الى ضمير الانسان وطويته الآيات التالية :

« ربكم أعــلم بما فى نفوسكم ، ان تكونوا صالحين » .
(الاسراء : ٢٥)

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد : ١١)

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » ٠

(سورة ق : ١٦)

ولقد وردت هذه الكلمة للدلالة على النفس كأمر خاص فى الانسان ، قد يكون جوهرا قائما بذاته ، وقد يكون مجرد تعبير مجازى عن حقيقة الانسان وماهيته ٠٠ وذلك مثل :

« لا أقسم بيوم القيامة ٠ ولا أقسم بالنفس اللوامة » ٠

(القيامة : ١ ، ٢)

« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء » (يوسف : ٥٣) ٠

« يا أيتها النفس المطمئنة ٠ ارجعى الى ربك راضية مرضية » ٠

(الفجر : ٢٧ ، ٢٨)

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » ٠

(النازعات : ٤٠)

وهكذا فان النفس فى القرآن تدل على الذات بمجموعها ، مشيرة الى عنصر الدوافع والنشاط الحيوى ، أكثر من دلالتها على المعنى الواعى ٠ فهى لفظ عام يشمل الانسان كله ، ولا يختص بالدلالة على التفكير أو الفهم ٠

* * *

٢ ــ القلب :

لقد كان ورود لفظ « القلب » فى القرآن أقل من لفظ « النفس » ٠٠ ويبدو أن أكثر معانيه تدور حول المعنى الوجدانى والعقلى فى الانسان ٠ ولذلك يبرز كأساس للفطرة السليمة ، والعواطف المختلفة ــ سواء ما يختص منها بالحب أو بالكراهية ــ ومحل الهداية والايمان والارادة والضبط والفهم ٠

فمن حيث أنه محل الفطرة السليمة فلقوله تعــالى :

« الا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء : ٨٩) ٠

وأما دلالته على الاعتبار والفهم والهداية فللآيات الآتية :

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ٠

(سورة ق : ٣٧)

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (التغابن : ١١) ٠

« لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » (المائدة : ٤١) .

« ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم » .
(الحجرات : ٧)

« الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان » (النحل : ١٠٦) .

ولكن القلب ليس دائما محل الهداية والايمان ، فقد يشير الى الاثم والمعصية ، كقوله تعالى :

« كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » (الحجر : ١٢) .

« ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه » .
(البقرة : ٢٨٣)

أما دلالة القلب على العواطف المختلفة فيدل على ذلك الآيات الآتية :

« وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » (الحديد : ٢٧)

« وليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » (آل عمران : ١٥٦)

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » (آل عمران : ١٥١)

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك » (البقرة : ٧٤)

ويتضح مما سبق أن معنى القلب فى القرآن الكريم أكثر تخصصا من معنى النفس ، فهو لا يدل على الدوافع الفطرية وانما يقتصر على الجزء الواعى منه .

* * *

٣ ــ الروح :

لم يتكرر لفظ « الروح » فى القرآن الا قليلا ، ولكن استعماله كان متنوعا . وقد وردت هذه الكلمة بما يفيد افاضة الحياة من الله على الانسان ، كقوله تعالى :

« فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .
(الحجر : ٢٩)

« ثم سواه ونفخ فيه من روحه » (السجدة : ٩) .

والروح هنا مضافة الى الله ــ سبحانه ــ دائما .

واستعملت كلمة الروح فى معنى مشابه للمعنى الأول ، وان كان أكثر تخصيصا منه ، وذلك للدلالة على خلق عيسى عليه السلام :

« **فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا** » (مريم : ١٧)

« **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا** » (الأنبياء : ٩١)

كما استعملت هذه الكلمة فى الدلالة على القرآن :

« **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا** » (الشورى : ٥٢) .

ووردت فى الدلالة على الوحى والملك الذى ينزل به :

« **يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق** » .
(غافر : ١٥)

« **قل نزله روح القدس من ربك بالحق** » (النحل : ١٠٢)

« **نزل به الروح الأمين . على قلبك** » (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤)

وفى كل هذه المعانى التى أشار اليها القرآن الكريم لا نلاحظ ورود هذه الكلمة للدلالة على البدن وحده أو على البدن مع الروح ــ بمعنى الانسان وفعاليته ونشاطه ــ كما هو الأمر بالنسبة « للنفس » ، مما يدل على تميز « الروح » عن « النفس » فى لغة القرآن .

* * *

٤ ــ العقــل :

لم يرد لفظ « العقل » كمصدر فى القرآن اطلاقا ، ولكن ورد فعل العقل بمختلف اشتقاقاته ، وكلها تدل على عنصر التفكير فى الانسان ، ومثال ذلك :

« **يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه** » .
(البقرة : ٧٥)

« **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون** » (البقرة : ٤٤) .

« **ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** » .
(الأنفال : ٢٢)

« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » .

(الملك : ١٠)

وللنفس علامات سبعة هى(١) :

١ — أمارة ، ٢ — لوامة ، ٣ — ملهمة ، ٤ — مطمئنة ، ٥ — راضية ، ٦ — مرضية ، ٧ — كاملة .

وينبغى البدء بعلاج النفس « الأمارة » ، لأنها لم تتخلص بعد من الضعف والجهالة وتنقاد الى الحس الظاهرى ، وتميل الى الغرور والتعالى والأنانية دون أن تلقى أى اهتمام للقيم والمبادىء والمثل والفضائل .

واذا ما تيسر للنفس تحقيق ما تنزع اليه من حظوظ ، طلبت المزيد .. فهى لا تشبع من جوع ، ولا تسكن عن طلب ، ولا تزهد فى شهوة ، وانما تطلب أبدا المزيد .. فاذا ما تحقق لها ما تطلب ، طمعت وتعالت وانحرفت عن الهدى .. وبذلك يصبح حب السيطرة سلوكها ، والبطش حالها ، والحقد والغضب معدنها ، والشهوة سلطانها .

وأخيرا تنتهى هذه النفس بصاحبها الى الضلال والانحراف .. وتسمى بالشخصية غير المستقيمة ، أو غير المتوازنة ، وتنطبق عليها أوصاف مختلفة مثل : الضالة ، أو الشرهة ، أو الفاسقة ، أو المنحرفة ، أو الشريرة ، أو غير السوية .

ولقد وجد أئمة الاسلام أنه لعلاج هذه الشخصية يجب البدء بعملية تخلية من الصفات المذمومة ، ثم تحلية هذه النفس بالصفات المحمودة ، ويتم ذلك بطريق المجاهدة(٢) . والسبيل أن يسعى الانسان للتخلص من آفاته ونقائصه ، وذلك بالتوبة والندم على ما فعله من الذنوب والمعاصى .

* * *

---

(١) حسن محمد الشرقاوى ، **نحو علم نفس اسلامى** . (الاسكندرية : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦) ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) أبو حامد الغزالى ، **احياء علوم الدين** (جـ ٨) . (القاهرة : الحلبى ، ١٩٥٧) ، ص ١٤٣٨ .

طبيعة الكائن البشرى وخصائصه :

اذا ما تساءلنا عن خصائص الطبيعة البشرية التى يتحدد من خلالها مدى تكامل الفرد بقدر ما ينعكس منهـا فى سـلوكه ، تتضح النقاط الآتية(١) :

١ ــ الانسان كائن مفكر :

لا شك فى أن الانسـان يشترك مع الحيوان فى كثير من الصفات البيولوجية ، ولكن تكامله لا يقوم على تنمية هذه الصفات التى يشترك فيها مع باقى أعضاء المملكة الحيوانية ، حيث ان تحقيقه للامكانيات التى ينفرد بها هو يميزه عن باقى أنواع تلك المملكة .

وأولى تلك الصفات أو الامكانيات هى قدرة الانسان على الكلام ، أى على استخدام الرموز اللغوية . فالانسان يستطيع أن يستخدم اللغة ليتذكر ، أو ليسترجع الأحداث المـاضية ، ليعالج الأشياء والرموز التى لا توجد فى حاضره وجودا واقعيا ، وكذلك ليسقط خبرته المـاضية على المستقبل . أى أن الانسان يستطيع أن يعالج الأمور والأشياء على مستوى تخيلى ، وبمعنى آخر يستطيع أن يعالج من الأمور ما ليس له وجود فعلى فى الواقع المحسوس .

وهذه القدرة الرمزية هى ما يجعل الانسان الكائن الوحيد الذى يمكنه أن يفكر فى المـاضى ، وفى المستقبل ، وفى الحاضر غير الحسى . وتساعده قدرته اللغوية هذه على أن يتعلم ، ليس فقط من خبرته هو ، بل أيضا من خبرة الآخرين الذين عاشوا فى أزمنة غير أزمنته ، وفى غير التى يعيش فيهـا .. كذلك تسـاعده هذه القـدرة على أن يتنبأ بما يمكن أن يترتب على سلوكه الخاص قبل أن يسلك ، وأن يكون له مثل عليـا يسلك على أساسها .

هنالك اذن صفات ثلاث أساسية تعتمد على استخدام الرموز وتميز الانسـان عن غيره من الكائنات . وهذه الصفات هى :

---

(١) محمد عماد الدين اسماعيل ، **الشخصية والعلاج النفسى** . (القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩) ص ١٣٨ ــ ١٤٢ .

١ — القدرة على الاستفادة من الخبرة السابقة ، بما فى ذلك خبرة الآخرين .

٢ — والقدرة على التوقع ، والتحكم فى السلوك بناء على التنبؤ بنتائجه قبل وقوعها .

٣ — وأخيرا القدرة على استحضار ما ليس له وجود فى الواقع المحسوس .

هذه هى المجموعة الأولى من الصفات التى ينفرد بها الانسان ويمتاز بها عن باقى أنواع المملكة الحيوانية .

٢ — الانسان كائن اجتماعى :

وثمة مجموعة أخرى من الصفات المميزة للكائن البشرى ، وهى تلك التى تتعلق بفترة طفولته الطويلة ، تلك الفترة التى يظل فيها مدة طويلة معتمدا اعتمادا لا حيلة له فيه على غيره من الكبار .. فليس بين الكائنات الحية الأخرى من تطول طفولته الى هذا الحد . وكلما تعقدت الثقافة زادت فترة الطفولة الانسانية طولا . والحقيقة التى لا تختلف من ثقافة الى أخرى هى أن الطفل الانسانى ، على خلاف ما هو معروف عن صغار أى كائن حى آخر ، يمكث مدة طويلة وهو لا يستطيع أن يشبع حاجاته الأساسية الا عن طريق الكبار المحيطين به .

ويتكون عند الطفل خلال هذه الفترة الطويلة من السنوات التكوينية اتجاهان مهمان : الاتجاه الأول هو أن بقاءه واشباعه لحاجاته لا يمكن أن تتحقق الا عن طريق اعتماده على غيره . أما الاتجاه الثانى فهو أن الانتقال الى مرحلة الرشد ، والتمتع بحقوق الكبار ، واتخاذ مكانتهم ، ترتبط دائما باستمرار تحمل المسئولية والعمل على اشباع حاجات الآخرين ، ذلك أن شخص الأب ، باعتباره فردا راشدا يتمتع بشىء من القوة والنفوذ والاستقلال ، يرتبط فى ذهن الطفل باستمرار المسئولية والغيرية الى حد ما ، ولو بشكل نسبى .

وتتأكد هذه العلاقة المتبادلة بين الاعتماد على الغير من ناحية ، وبين المسئولية من ناحية أخرى ، سواء على مستوى الأطفال والآباء أو على مستوى الكبار الراشدين ، كلما تعقدت الحضارة .. ففى المجتمعات البدائية أو البسيطة يتحمل المسئولية أفراد محدودون ، بمعنى أن يأخذ عدد بسيط من الأفراد على عاتقه اشباع الحاجات الضرورية عند بقية

أفراد المجتمع • ولكن فى المجتمعات المتحضرة ، فان التقدم التقنى (التكنولوجى) قد جعل من الضرورى تقسيم العمل بشكل واضح أصبح لا مفر فيه من أن يعتمد كل فرد فى المجتمع على غيره من الناس ، وأن يكون فى ذات الوقت مسئولا عن جزء آخر من المجتمع الذى يعيش فيه • والفرق بين المجتمعات البسيطة والمتحضرة هو فرق فى الدرجة فقط •• فأفراد الانسان مهما يكن نوع المجتمعات التى يعيشون فيها ، لابد وأن يعتمدوا بعضهم على البعض الآخر ، سواء أكان ذلك على مستوى علاقة الآباء بالأبناء ، أم على مستوى العلاقات الاجتماعية فيما بين الراشدين •

هذا النمط المميز للحياة الانسانية هو ما يضفى عليها الصفة الاجتماعية ، تلك الصفة التى لا توجد عند أى نوع آخر من المملكة الحيوانية • فان ما نشاهده من تقسيم العمل بين بعض الحيوانات المعروفة — كالنحل مثلا — لا يمثل هذه الاجتماعية التى توجد عند أفراد الانسان ، حيث ان توزيع العمل عند هذه الحشرات يتم فى قوالب محددة من السلوك الغريزى الوراثى ، ولا يدل على وجود القدرة على تبادل المسئولية والاشتراك فيها كما هو موجود عند الانسان •

هذه هى الامكانيات التى يتميز بها الانسان عن أفراد المملكة الحيوانية •• وعلى أساس هذا التحديد للامكانيات الانسانية يمكن أن نقيم مفهوما واضحا للشخصية السوية ، ويمكن كذلك أن نفهم معنى السلوك السوى الايجابى المتكامل بطريقة مفيدة ومثمرة • ذلك أنه يمكننا الآن أن نستنبط من هذه الخصائص التى تتميز بها الطبيعة الانسانية صفات معينة ، لو تحققت فى أحد الأشخاص ، أو أمكن غرسها فيه بطريقة ما ، لكان هذا الشخص هو ما نعنيه عندما نتحدث عن الشخص السوى ، ولكان سلوكه هو ما نقصده عندما نتكلم عن السلوك المتكامل •

وهذا التصور الايجابى للشخصية السوية ، يختلف عن ذلك التصور السلبى القائم على مجرد اختفاء الأعراض المرضية • وفى هذا التصور الايجابى يمكننا أن نعرف على وجه التحديد ما يجب علينا عمله لكى نساعد الأفراد حتى يكونوا أسوياء •

* * *

الخلاصـــــة

يتلخص ما سبق مناقشته خلال هذا الفصل فى النقاط الآتية :

١ ــ الانسان فى هذا الكون فريد فى طبيعته ووظيفته وغاية وجوده ومصيره • وهو مخلوق مختلف تماما عن سائر المخلوقات التى نعرفها ولا نعرفها ••

ولم يخلق مصادفة أو جزافا ، بل مخلوق بقدر ، ومخلوق لغاية •• وهذا ما يوضحه الدين الاسلامى حين تحدث القرآن الكريم عن الانسان باعتباره سيدا لهذه الأرض وخلافته فيها عن الخالق سبحانه ، وكل ما فى الأرض مسخر له • وأوتى من العـــلم بشئون هذه الأرض هبة من الله جلت قدرته •• ولكن هذا الانسان ــ فى التصور الاسلامى ــ على الرغم مما استودعه الله فيه من أمانة الخلافة فى هذا الملك العريض ، فهو مخلوق ضعيف ، تغلبه شهواته أحيانا ، ويحكمه هواه أحيانا ، ويقعد به ضعفه أحيانا ، ويلازمه جهله بنفسه فى كل حين ••

٢ ــ عندمـــا نتحدث عن خصـــائص النفس البشرية ، نجـــد أن « الغزالى » قد استخدم للدلالة عليها أربعة ألفاظ هى : النفس ، والقلب ، والروح ، والعقـــل • وقد وردت هذه الألفاظ ــ عدا لفظ « العقل » ــ فى القرآن الكريم على النحو التالى :

(أ) ورد لفظ « النفس » فى القرآن الشريف على صور عديدة فردية وجمعية ، للدلالة على طوية الانسان وجوهره أو للدلالة على شىء معين • كما وردت للدلالة على الذات الالهية • واستعملت للدلالة على ضمير الانسان وطويته • كما استخدمت للدلالة على النفس كأمر خاص فى الانسان ، قد يكون جوهرا قائما بذاته ، وقد يكون مجرد تعبير عن حقيقة الانسان وماهيته ••

(ب) عندما ورد لفظ « القلب » فى القرآن الكريم فان أكثر معانيه تدور حول المعنى الوجدانى والعقلى فى الانسان • لذلك يبرز كأساس للفطرة السليمة ، والعواطف المختلفة ، ومحل الهداية والايمان والارادة والضبط والفهم ••

(جـ) لم يتكرر لفظ « الروح » فى القرآن الا قليلا ، ولكن استعماله كان متنوعا • فقد ورد ليفيد بافاضة الحياة من الله على الانسان ، وللدلالة على خلق بعض الأنبياء كعيسى عليه السلام ، وللدلالة أيضا على الوحى ••

(د) لم يرد لفظ « العقل » مصدر فى القرآن اطلاقا ، ولكن ورد فعل العقل بمختلف اشتقاقاته ، وكلها تدل على عنصر التفكير فى الانسان •

٣ — للنفس علامات سبعة هى : أمارة ، ولوامة ، وملهمة ، ومطمئنة ، وراضية ، ومرضية ، وكاملة • وينبغى البدء بعلاج النفس « الأمارة » ، لأنها لم تتخلص بعد من الضعف والجهالة ، وتنقاد الى الحس الظاهرى ، وتميل الى التعالى والغرور والأنانية ، دون أن تلقى أى اهتمام للقيم والمبادىء والمثل والفضائل • ووجد أئمة الاسلام أنه لعلاج هذه الشخصية يجب البدء بعملية تخليصها من الصفات المذمومة ثم غرس الصفات المحمودة فيها •

٤ — عندما نتساءل عن خصائص الطبيعة البشرية التى يتحدد من خلالها مدى تكامل الفرد بقدر ما ينعكس من سلوكه ، يتضح لنا ما يأتى :

(أ) « الانسان كائن مفكر » •• فهو قادر على الكلام ، فهو يستخدم اللغة ليتذكر أو ليسترجع الأحداث الماضية ، ليعالج الأشياء والرموز التى لا توجد فى حاضره وجودا واقعيا ، وكذلك ليسقط خبرته الماضية على المستقبل • وهناك صفات ثلاث تعتمد على استخدام الرموز وتميز الانسان عن غيره من الكائنات وهى : (١) القدرة على الاستفادة من الخبرة السابقة • (٢) والقدرة على التوقع والتحكم فى السلوك • (٣) والقدرة على استحضار ما ليس له وجود فى الواقع الملموس ••

(ب) « الانسان كائن اجتماعى » •• بفضل فترة الطفولة الطويلة للانسان التى يظل خلالها معتمدا على غيره من الكبار • ويتكون عند الطفل خلال هذه الفترة اتجاهان هامان هما : أن بقاءه واشباعه لحاجاته لا يتحقق الا من خلال اعتماده على غيره • والاتجاه الثانى هو أن الانتقال الى مرحلة الرشد والتمتع بحقوق الكبار يرتبط باستمرار تحمل المسئولية

والعمل على اشباع حاجات الآخرين .. وهذا النمط هو ما يضفى على الحياة الانسانية صفة « الاجتماعية » .

ويتضح مما سبق أن الدين الاسلامى وضع الأسس والمبادىء الخاصة بالطبيعة البشرية ، وتمثل ذلك فيما ورد فى آيات القرآن الكريم ، وما ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة .. وهى أسس ومبادىء قائمة على الخلق والابداع ، وادراك الخالق لطبيعة الانسان — الذى خلقه وكونه — وأوضح له طريق الخير وطريق الشر ، وحذره من وساوس الشيطان .. ولكنه على الرغم من ذلك اتبع غواية الشيطان ووقع فى الخطأ ، وكان هذا فى بداية خلق الانسان « قصة آدم » .

ولقد بذلت محاولات عديدة — على مر الأعوام والسنين — لتأصيل المبادىء الانسانية .. ولكن لا يزال الانسان قاصرا عن فهم ذاته ومكونات نفســه ، وعاجزا هذا العجز الظاهر عن ادراك خبايا الطبيعة البشرية .. وسيظل هكذا الى يوم الدين .. « **وما أوتيتم من العلم الا قليلا** » (الاسراء : ٨٥) صدق الله العظيم ..

* * *